

الفصل التاسع

انهيار النظام الاعلامى الشرقى

رغم كثرة ما كتب عن المتغيرات في الكتلة الشرقية ، الا ان الجانب الاعلامى من تلك المتغيرات لم ينل ما يستحقه من البحث او التحليل . . . !

وقد لا يرجع السبب في تلك الظاهرة الى تقصير في الاهتمام ، بقدر ما يعود الى ندرة المعلومات في مجال الاعلام ، وتوافرها بكثرة في مجالى السياسة والاقتصاد ، وآمل ألا تنتهم بالتجاوز حين نقول ان دور الاعلام في المتغيرات بالكتلة الشرقية لا يقل عن دور السياسة او الاقتصاد ، او غيرها من العوامل المؤثرة ، وقد تأكد في بعض الحالات ان اهمية الاعلام ودوره قد تتفوق على غيره من العوامل . . !

وقد يشجعنا ذلك على طرح تفسير يرى الاعلام كمحرك رئيسى لما حدث من متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية في الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوربا ، وذلك اعتمادا على حقيقة ان وسائل الاعلام في تلك المجتمعات شكلت رأس الحربة التى حطمت الابواب الموصدة امام تلك المتغيرات ! كذلك فان التطور الهائل لتكنولوجيا الاتصال في السنوات الاخيرة ، قد مكن وسائل الاعلام من اختراق الحواجز بين الشرق والغرب ، وهدم الستار الحديدي الذى فرض لسنوات طويلة على شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوربا ، ودفع تلك الشعوب الى التطلع لمحاكاة النموذج الغربى فى الحياة .

ومدخلنا الى التعرف على اهمية الاعلام ودوره فى المتغيرات بالكتلة الشرقية ، يمر بثلاثة محاور ، فى المحور الاول نبحث فى العلاقة بين البروسترويكما والجلاسنوست (اى اعادة البناء والعلنية) واهمية الاعلام ودوره بالنسبة لهما ، وفى المحور الثانى نرصد الدور الذى لعبه الاعلام الغربى - مستعينا ومستفيدا بتكنولوجيا الاتصال الحديثة - فى تلك المتغيرات ، اما المحور الثالث والاخير ، ففيه نطرح تساؤلات حول التأثير المتوقع لتلك المتغيرات على النظام الاعلامى الشرقى .

الاعلام بين البروسترويكا والجلاسنوست

ان الهدف الرئيسى للرئيس السوفيتى جورباتشوف هو « تحديث الاتحاد السوفيتى » وعملية التحديث غالبا ما تتطلب احداث انجازين ، الاول : هدم البناء القديم ، والثانى وضع اسس وقواعد بناء جديد . وهو نفس الطريق الذى سار عليه جورباتشوف ، فقد قام اولا بمحاولة تصفية اشتراكية ستالين وبريجنيف باسرها البالية ، ثم قام ثانيا بمحاولة بناء اسس جديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية للمجتمع السوفيتى . ولنعمن النظر فى مدلول اصطلاح « البروسترويكا » الذى جاء به جورباتشوف ، انه يعنى اعادة البناء ، فهو يتضمن الهدم ، والبناء ، اذ لايمكن عقلا تصور بناء مجتمع جديد ، دون ان يسبقه هدم للمجتمع القديم ،

اما اداة جورباتشوف لاعادة بناء المجتمع السوفيتى ، فقد كان الجلانوسنوست ، او العلنية ، او المكاشفة ، او المصارحة ، وهدفها خلق قوة دفع بين الجماهير السوفيتية لتحقيق اوسع قدر من المشاركة الشعبية فى عملية اعادة البناء من ناحية ، وللمساعدة فى مواجهة واضعاف القوى المعارضة للبروسترويكا من ناحية ثانية .

ويكشف جورباتشوف فى كتابه « بروسترويكا » عن المعادلة التى تربط بين البروسترويكا والجلانوسنوست حين يقول : « بدون العلنية لا ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ولن تكون اشتراكية عصرية » (١) .

اما وسائل العلنية وادواتها فهى بالضرورة وسائل الاعلام من صحافة ورايو وتليفزيون واتصال شخصى فى الندوات واللقاءات المباشرة مع الجماهير . لذلك فقد اضاف جورباتشوف الى معادلته التى تربط بين

الروسيزويكا والحلاسوست عصرًا جديدًا وهو الاعلام ، ففى لقاء له مع اتحاد الصحفيم السوفيت في ربيع عام ١٩٨٩ م قال :
« بدون وسائل الاعلام الحرة لا ولن تكون هناك علنية ، وبدون العلنية لا ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ولن تكون هناك اشتراكية عصرية »^(٢) . العلنية اذن ممثلة في وسائل الاعلام الحرة هي حجر الراهية في نظرية جورباتشوف عن اعادة البناء .
وانصو ر انه لم يكن امام جورباتشوف سوى العلنية لتطبيق نظريته في اعادة بناء المجتمع السوفيتى ، انها « ضرورة » اكثر من كونها « اختيار » فهو لم يكن يستطيع - حتى لو اراد - ان يلجأ لاسلوب دكتاتورية الحزب او الطففة ، كأداة لتحديث المجتمع كما فعل من قبله لينين وستالين في الاتحاد السوفيتى او ماونسى تونج في الصين ، فما كان يصلح كأداة لتحديث المجتمعات في النصف الاول من القرن العشرين ، لم يعد ينفع العمل به في نهاية القرن .

في عصر الثورة العلمية الهائلة ، وفي ظل تطور تكنولوجيا الاتصال والاعلام والتواصل بين الشعوب ، لم يعد في مقدرة حرب مهما بلغت قوته ولا في مقدور فرد مهما وصلت حاديته ان يصادر حركة المجتمعات وان يجول حاهير الشعوب الى مجرد متفرجين ، فالاسان المعاصر وخاصة في الشعوب المتقدمة ، لم يعد يقبل ان يكون مجرد وقود لدفع عجلة التحديث مهما قبل له عن فوائد التحديث ، انه لا يقبل أقل من ان يكون مشاركًا في اتحاد قرار التحديث ومرافقًا لتنفيذه ، وطرفًا اصيلاً في تقييمه

وهذا الصلص ما توصل اليه جورباتشوف ، وهو ايضا ما يفرق بين

الخمسينيات حتى منتصف الستينيات ، فقد حاول خروتشوف ان يقوم
بالتغيير في الاتحاد السوفيتى من داخل الحزب الشيوعى وعن طريقه ، ولم
يسعى لاشراك الشعب السوفيتى فى التغيير ، فكان ان اطاح الحزب به ،
بينما وقف الشعب السوفيتى متفرجا . . !
ولكن كيف توصل جورباتشوف إلى هذه النتيجة ؟

لقد رصدت خلال تجربته القصيرة فى العمل بمختلف مستويات الحزب
الشيوعى السوفيتى ، وفى جهاز المخابرات «K.P.J» واثناء توليه العديد
من المناصب التنفيذية ، الحقائق التالية :

- انخفاض مستوى انتاجية العمل فى الاتحاد السوفيتى ، مقارنة بمجموعة
البلدان الرأسمالية الصناعية وبالذات الولايات المتحدة الامريكية
واليابان .

- تأخر الاقتصاد السوفيتى عن تطوير وتطبيق انجازات الحلقات الاحدث
للثورة التكنولوجية .

- جهود آليات تخطيط الاسعار وإدارة المشروعات .

- سوء استخدام الملكية العامة بالفساد والتسيب .

- تخلف الصناعة السوفيتية مقارنة بالمقاييس العالمية الاحدث ، وانخفاض
الكفاءة والجودة فى الإنتاج وارتفاع التكلفة واهدار الموارد فضلا عن
ضعف القدرة التنافسية فى السوق العالمية وغلبة المواد الأولية فى هيكل
الصادرات .

وفى بحثه عن أسباب ومبررات تلك المظاهر السلبية ، فقد وضع
جورباتشوف يده على العوامل التالية :

- انفراد نخبة بيروقراطية فى الحزب والدولة بالسلطة واحتكارها لعملية
صنع وتنفيذ القرار السياسى

- سلبية ولا مبالاة الجماهير المبعدة عن المشاركة السياسية الحقيقية .
 - ضعف حوافز النشاط الفردي .
 - تقييد حرية البحث العلمى والابداع الفكرى .
 - إهدار حقوق الانسان وحرياته الاساسية .
- وبذلك توصل جورباتشوف الى حقيقة مؤداها ان الظواهر السلبية فى التجربة الاشتراكية السوفيتية ، ترجع الى افتقادها للديمقراطية^(٣) .

وفى كتابه « بروتويكا » وفى مختلف خطبه واحاديثه ، فإن جورباتشوف يعنى بإعادة البناء ، اقامة الاشتراكية العصرية ، ويعنى بالعلنية ، الديمقراطية .

وهكذا فإن جورباتشوف يستخدم سلاح العلنية أو الديمقراطية لهدم أسس الاشتراكية الستالينية وبناء الاشتراكية العصرية ، ففى مواجهة انفراد نخبة بيروقراطية بالسلطة واحتكارها لعملية صنع وتنفيذ القرار ، يطرح للنقاش امكانية التخلّى عن دكتاتورية البروليتاريا وانفراد الحزب الشيوعى بالسلطة .

وفى مواجهة سلبية ولا مبالاة الجماهير المبعدة عن المشاركة السياسية الحقيقية ، يطرح للنقاش امكانية وجود التعددية السياسية . وفى مواجهة القيود المفروضة على حرية البحث العلمى والابداع الفكرى واهدار حقوق الانسان وحرياته الاساسية ، يطرح للنقاش اطلاق حرية الفكر والتعبير وحرية الاجتماع والسفر ، وحرية الصحافة وبقية وسائل الاعلام .

وقد نظر جورباتشوف الى حرية الصحافة ووسائل الاعلام الاخرى - وله الحق فى ذلك - باعتبارها حجر الزاوية والمظهر الاساسى لمدى توافر بقية الحريات فى المجتمع ، وذلك لعدة اعتبارات وأهمها :

- ان وسائل الاعلام هي الاداة الفعالة للمراقبة الشعبية على نشاط جميع أجهزة الدولة بدون استثناء .

- ان وسائل الاعلام هي القادرة وحدها على رفع مستوى الوعي السياسى لدى الجماهير ، فهي التى تستطيع ان تقول للناس : ماذا جرى بالأمس ؟ وما الذى يجرى اليوم ، ولأى شىء نسعى فى الغد ؟ ولذلك فهي تساعد الجماهير على الانخراط فى عملية إعادة البناء .

- انه بدون وسائل الاعلام لا يمكن التعبير عن وجهات النظر والآراء المختلفة المعبرة عن مصالح كافة فئات المجتمع وتجمعاته .

- ان وسائل الاعلام هي المؤهلة وحدها لاستخدام سلاح النقد من القاعدة ، كأداة لاختبار سياساتنا ولكافحة الظواهر السلبية والتحذير منها .

ويقول جورباتشوف فى هذا الصدد : « لا بد ان نعرف ان النقد دواء مر ، ولكن الامراض تجعل منه شيئا ضروريا نشمئز منه ، ولكنك تضطر لتناوله ، وان ابطاء وسائل الاعلام فى عملية النقد ، يعنى إلحاق الضرر بعملية اعادة البناء »^(٤) .

ويعترف جورباتشوف بالدور الذى قامت به وسائل الاعلام السوفيتية فى دفع عملية إعادة البناء بلوغ المستوى الذى عليه اليوم فى مناقشة كافة معضلات عملية التغيير الواسعة والمتناقضة والمتعددة الجوانب ، لو لم تنخرط فى الحال وسائل الاعلام الجماهيرى فى هذه العملية وتمارس دورها بنشاط وبالشكل اللائق »^(٥) .

وإذا كان جورباتشوف قد أدرك أهمية وسائل الاعلام الجماهيرى وخاصة الصحافة ، فلم ينس دور الاتصال الشخصى فى الدعوة لفكره الجديد ، وقد حرص على الاتصال الشخصى بكافة الفئات

والتجمعات ، وكان وهو يتحرك في الشارع ويختلط بالناس العاديين يعمل على إيجاد رأى عام في مواجهة خصوم التغيير. وقد أدرك جورباتشوف بخبرته الطويلة في العمل السياسى ان المثقفين السوفييت هم أكثر فئات المجتمع السوفيتى ترحيبا بإعادة البناء ، لذلك حرص على ان يكون لهم دور متميز فى وسائل الاعلام ، وقد اتاح للكثيرين منهم منافذ فى اجهزة الاعلام وخاصة الكتاب والادباء والمفكرين والصحفيين السوفيت الذين اضطروهم الاضطهاد فى الفترات السابقة الى الهجرة خارج الوطن .

وعقب المؤتمر لثامن لاتحاد الكتاب السوفيت الذى عقد فى موسكو عام ١٩٨٦م ، سمح بنشر كل ما كان ممنوعا من النشر فى الفترة السابقة ومنها رواية سولجنستين « أرخيل دائرة معسكرات الاعتقال » ورواية بسترناك « دكتور زيفاجو » ، ورواية تفاردوفسكى « بحق الذكرى » ، ورواية اناتولى ريباكوف « اولاد شارع أربات » ، ورواية ايتاتوف « النطم » ، وغيرها من الاعمال المنوعة والتي تنسب لما سمي بالادباء المشفقين ، وشهدت نفس الفترة ايضا نشر واصدار العديد من المقالات والكتابات النقدية التى تناول الفترة السابقة ، كما تزايدت فرص الحوار الحر ، والتي أخذ بعضها شكل الاتهامات المتبادلة ، وقد شملت هذه الاتهامات كتابا بارزين امثال فالتين راسوتين ويورى بونداريف وغيرهما ، وقد طال الاتهام المص أسماء الادب السوفيتى مثل مكسيم جوركى ومايكوفسكى تولستوى وشولوخوف ويسنين وتفاردوفسكى وفادييف وغيرهم ، ولم ينج اتحاد الكتاب السوفيتى وغيره من الاتحادات الثقافية مثل اتحاد الصحفيين واتحاد الفنانين من رياح التغيير التى هبت على المجتمع السوفيتى بأكمله ، حيث تعرضت الى حملة نقد واسعة

واتهمت بأنها تحولت الى دوائر بيروقراطية وتخضع مباشرة لسياسة الحزب الشيوعي الثقافي^(٦) .

وقد أتت سياسة جورباتشوف تجاه المثقفين بنتائجها المرجوة ، فحين اجريت انتخابات جديدة في الاتحادات الثقافية والتي شملت اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب فقد مارس المشاركون فيها النقد والنقد الذاتي وهو الأمر الذي أدى الى عدم انتخاب القادة السابقين لهذه الاتحادات ، وضمت الهيئات الجديدة المنتخبة كثرة غالبية من انصار إعادة البناء .

- ٢ -

أثر الاعلام الغربى على المتغيرات فى الكتلة الشرقىة

لقد لعب الاعلام الغربى دورا لا يمكن انكاره فى المتغيرات الحاصلة اليوم فى الكتلة الشرقىة ، وقد استطاع ذلك الاعلام ، مستعينا ومستفيدا من التطور الهائل فى تكنولوجيا الاتصال والاعلام ، ان يخترق الحواجز بين الشرق والغرب ، وأن ينفذ من الستار الحديدى الذى فرض على شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا منذ نهاية الحرب العالمىة الثانية ، وان يدفع تلك الشعوب الى التطلع لمحاكاة النموذج الغربى فى الحىاة .

وإذا كان حاجز اللغة والرقابة قد قللا من انتشار الصحف الغربىة الدولىة بين القراء فى الكتلة الشرقىة ، وإذا كان « حراس البوابة » فى وسائل الاعلام الشرقىة قد وقفوا بين برقيات وكالات الانباء الغربىة والنشر أو الاذاعة فى تلك الوسائل ، إلا أن البث الاذاعى الغربى ، والبث التليفزيونى الغربى - وإن كان بدرجة أقل - قد استطاعا ان يصلا الى اعداد متزايدة من المستمعين والمشاهدين فى الكتلة الشرقىة ، ذلك أن عامل اللغة لا يشكل عائقا دون وصول البرامج الاذاعىة الموجهة الى المستمعين فى الكتلة الشرقىة فهذه البرامج تقدم بكافة اللغات المستخدمة بين شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، بل وبيعض اللهجات المحلىة ، أما التليفزيون ، فإن طبيعة برامجه التى تعتمد بشكل أساسى على فن الصورة المتحركة ، تقلل كثيرا من أهمية اللغة ، وإن كانت لا تلغىها .

وبالنسبة لعمليات التشويش على البرامج الاذاعىة والتليفزيونىة ، والتى لعبت دورا مشابها لدور الرقابة على الصحف وعلى برقيات وكالات

الانباء ، فقد فقدت منذ بداية الثمانينات تأثيرها وجدواها ، حيث ساعد التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال الدولي على ابتكار العديد من الطرق للتحايل عليها ، فضلا عن تكاليفها الباهظة والتي تصل في بعض الأحيان الى ما يوازي تكلفة الاذاعة المراد التشويش عليها ، كما ان ايقاف التشويش الاذاعي والتليفزيوني المتبادل بين الشرق والغرب ، كان واحدا من أسس الوفاق بين المعسكرين ، بل واعتبر من المؤشرات الهامة لاثبات مدى صدق النوايا في استمرار سياسة الوفاق .

ومن المفارقات التاريخية ان الاتحاد السوفيتي كان في مقدمة الدول التي استفادت من اكتشاف امكانيات الموجة القصيرة في البث الدولي ، فأقامت اذاعة موجهة الى غرب أوروبا باللغة الانجليزية ، وقد بلغ من تأثير هذه الاذاعة ، انها أثارت بريطانيا بحيث سارعت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٢٧^(٧) . ولكن ندرك حجم الارسال الاذاعي الموجه من الغرب الى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا ، يكفي أن نشير فقط الى جهود دولتين غربييتين وهما الولايات المتحدة وبريطانيا .

ان الولايات المتحدة الامريكية تبث خمس اذاعات موجهة الى شعوب الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا ، وفي مقدمتها اذاعة صوت امريكا Voice of America وهي إدارة حكومية ، وتخدمها ١١٣ محطة ارسال في الولايات المتحدة وخارجها ، وتذيع ٧٧٦ ساعة اسبوعيا الى مختلف انحاء العالم ، من بينها ٤٦٠ ساعة موجهة الى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا ، وتقدم برامجها بخمس وثلاثين لغة ، منها ١٧ لغة مستخدمة في الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا^(٨) .

وهناك اذاعة RIAS وهي اذاعة امريكية تبث من برلين الغربية وتعمل ٢٤ ساعة يوميا ، وهي موجهة بالاساس الى المانيا الشرقية .

وتوجد اذاعة راديو أوروبا الحرة Radio Free Europe وهي تبث برامجها من ميونيخ بالمانيا الغربية وتديره اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة ، وهي لجنة تسيطر عليها المخابرات الامريكية CIA وتوجه برامجها الى دول شرق أوروبا . وهناك راديو الحرية Radio Liberty ويثت برامجها من ميونيخ بالمانيا الغربية ويذيع برامجها بعشرين لغة من اللغات المستخدمة في شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي ، وهو يركز على تناول الاحداث التي تقع في الكتلة الشرقية من وجهة نظر غربية .

وهناك أخيرا اذاعة القوات المسلحة الامريكية والتي تبثها القوات الامريكية المرابطة بالمانيا الغربية ، وتغطي برامجها كافة أراضي المانيا الشرقية .

وقد قدرت إحدى لجان الكونجرس التكلفة السنوية للانشطة الاذاعية الامريكية الموجهة الى الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا بنحو ٥٠٠ مليون دولار^(٩) .

أما هيئة الاذاعة البريطانية B.B.C فإنها تذيع ٧٠٠ ساعة اسبوعيا منها حوالي ٣٢٠ ساعة موجهة الى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا ، وهي تذيع بعشر لغات من اللغات المستخدمة في الكتلة الشرقية وتستخدم ٧٠ محطة إرسال داخل إنجلترا وخارجها^(١٠) .

ومن المهم أن نشير الى أنه لا تخلو دولة في المعسكر الغربي ، وبالذات دول غرب أوروبا من اذاعة موجهة الى الكتلة الشرقية وإذا انتقلنا الى مجال البث التلفزيوني فمن المؤكد أن إرسال محطات التلفزيون في المانيا الغربية يغطي كامل أراضي المانيا الشرقية منذ عدة سنوات ، كذلك فإن الإرسال التلفزيوني في دول غرب أوروبا يغطي مساحات غير قليلة من دول الكتلة الشرقية المتاخمة لها ، وقد أقامت دول

غرب أوروبا محطات تقوية للإرسال التليفزيوني بالقرب من حدودها مع دول الكتلة الشرقية ، مكن هذا الإرسال من الوصول بوضوح الى العديد من المناطق في دول شرق أوروبا .

كذلك فقد تم انشاء شبكة اليورفيزيون Eurovision والتي تضم إلى جانب بريطانيا وفرنسا عددا اخر من دول غرب أوروبا ومنها المانيا الاتحادية وإيطاليا والنمسا^(١١) ، ثم أنشأت شبكة النوردفيزيون والتي تربط بين محطات التليفزيون في الدول الاسكندنافية وتضم النرويج والسويد والدانمرك وفنلندا وإيسلندا^(١٢) ، وقد أدى ذلك الى تقوية الإرسال التليفزيوني في دول غرب أوروبا ، وهو الأمر الذي مكن هذا الإرسال من الوصول الى عدة مناطق في شرق أوروبا .

ومن المهم أن نشير الى أن عقدي السبعينات والثمانينات قد شهدا نقل البرامج التليفزيونية عبر المحيطات والقارات بعد اطلاق أقمار الاتصال الصناعية Communication Satellites وقد كونت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الرابطة الدولية لأقمار الاتصال والمعروفة باسم انتلسات Intelsat وقد اطلقت الرابطة عدة أجيال من الأقمار الصناعية باسم انتلسات ، وهي تعطى الآن كافة أنحاء الكرة الأرضية بما فيها الكتلة الشرقية ، وتخدم ٨٠ محطة أرضية في ٦٠ دولة^(١٣)

ومنذ سنوات قليلة ، أصبح في امكان أجهزة التليفزيون المنزلية التقاط الإرسال التليفزيوني من القمر الصناعي مباشرة دون حاجة الى إعادة البث من المحطات الأرضية ، وذلك باستخدام هوائيات خاصة . ولكن من المشكوك فيه ، تسرب مثل هذه الهوائيات الى المواطنين في الكتلة الشرقية ، إذ يمنع استيرادها من الخارج أو إنتاجها محليا . ! اما عن الكيفية التي يؤثر بها البث الاذاعي والتليفزيوني على شعوب الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا ، فهي تتنوع وتشكل حسب تطور

الاحداث في الكتلة الشرقية ، ولكن يبرز من بينها الاستخدام المكثف
للاساليب الاعلامية التالية :

- تقديم تغطية اخبارية للاحداث بشكل عام وللحداث في الكتلة
الشرقية بشكل خاصة من وجهة نظر غربية ، وبأسلوب يوحي بأن
القرار في الدول الاشتراكية يتم في غير صالح شعوب هذه الدول .
- الترويج للأفكار الليبرالية بجناحيها : الاقتصادي المتمثل في المبادرة
الفردية ، والسياسي المتمثل في التعددية السياسية والديمقراطية ، وفي
الوقت نفسه ابراز مساوئ الاشتراكية بجناحيها : الاقتصادي المتمثل
في ملكية الدولة لوسائل الانتاج ، والسياسي المتمثل في دكتاتورية
البروليتاريا وانراد الحزب الشيوعي بالسلطة .

- تقديم صورة جذابة لأسلوب الحياة في المجتمعات الغربية ، وابراز مدى
الرفاهية والحرية التي يتمتع بها افرادها ، وفي الوقت نفسه تقديم صورة
سيئة لأسلوب الحياة في المجتمعات الشرقية ، مع التركيز على افتقاد
الحرية والازمات الاقتصادية وعدم توافر أدوات الرفاهية .

- توظيف الامكانيات التكنولوجية وتطور الأساليب الفنية في الغرب
بالاضافة الى اتباع أحدث وسائل الحرب النفسية وأساليب الاقناع في
جذب أكبر عدد من المستمعين والمشاهدين في الاتحاد السوفيتي وشرق
أوربا للبرامج الاذاعية والتليفزيونية الغربية .

ويعترف تقرير للجنة الشئون الخارجية بالكونجرس حول كسب
الحرب الباردة والهجوم الايديولوجي الامريكى "Wining the cold
war : the U.S Ideological offensive" بدور الاعلام الامريكى في التأثير
على شعوب الدول الاشتراكية حيث جاء به :

" يمكننا أن نحقق بعض أهداف سياستنا الخارجية من خلال التعامل
المباشر مع شعوب هذه الدول بدلا من التعامل مع حكوماتها ، ومن

خلال استخدام أدوات وتقنيات الاتصالات الحديثة يمكننا اليوم أن نصل الى قطاعات كبيرة أو مؤثرة من السكان في هذه البلاد ، وأن نقوم باعلامهم والتأثير في اتجاهاتهم بل ويمكن في بعض الأحيان أن نحرضهم على سلوك طريق عمل معين ، وهذه المجموعات يمكنها أن تمارس ضغوطا ملحوظة وحتى حاسمة على حكوماتها .

لقد وضع هذا التقرير في بداية الثمانينيات ، وكأنه يرسم بدقة ما حدث بالفعل في نهايتها . . !

وقد اعترف جورباتشوف في كتابه « البروسترويكا » بخطورة الدور الذي لعبه الاعلام الامريكى في التأثير على شعوب الاتحاد السوفيتى وذلك بقوله :

« إن الاعلام الامريكى يصور للمواطنين السوفيت أن أمريكا هي الجبل المتلألئ ، في حين يصور الاتحاد السوفيتى باعتباره ، امبراطورية الشر » (١٤) .

ومن المهم أن نشير الى ندرة الدراسات والبحوث العلمية التي تكشف عن حجم ومدى ونوعية تأثير الاعلام الغربى على مسار المتغيرات في الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا ، ذلك أن بحوث التأثير بطبيعتها تتطلب دراسة الجمهور المستقبل للرسالة الاعلامية الغربية ، عن طريق البحوث الميدانية واستطلاعات الرأى العام ، وهو الأمر الذى لم يكن متاحا حتى فترة قريبة في الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا ، أما ما تم القيام به من بحوث ودراسات في الفترات السابقة ، فقد كانت تحاط بسرية كاملة ، ويحظر نشر نتائجها بدعوى حماية الأمن القومى . ورغم ذلك فمن الممكن رصد بعض الشواهد التي تبين تأثير الاعلام الغربى على مجريات الأحداث في الكتلة الشرقية ، ومن أبرز هذه الشواهد وأكثرها دلالة ، أن الحركات التي تقود التغيير في الاتحاد

السوفيتي ودول شرق أوروبا ، ترفع من الشعارات وتتبني من الأفكار والسياسات ما يتطابق تماما مع ما عملت من أجله وسائل الاعلام الغربية الموجهة الى الكتلة الشرقية فهذه الحركات ترفع شعارات الحرية والديمقراطية واصلاح ما أفسده الحكم الشيوعي ، وهي تتبنى افكارا وسياسات تدعو الى انهاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة ، والسماح بالتعددية السياسية ، والاعتراف بالمبادرة الفردية واعتماد حق الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، واحترام حقوق الانسان وحرياته الأساسية . وقد أجرى استطلاع للرأى شمل خمسة آلاف من الالمان الشرقيين الذين نزحوا الى المانيا الغربية بعد هدم سور برلين ، كشفت نتائجه أن ٨٦٪ كونوا فكرتهم عن أسلوب الحياة في الغرب بصفة عامة والمانيا الغربية بصفة خاصة عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية الغربية ، في حين ذكر ١٤٪ انهم كونوا هذه الفكرة عن طريق الاتصال الشخصي مع الأقارب والاصدقاء وزملاء العمل . أما الذين اعتمدوا على وسائل الاعلام الجماهيرية فقد ذكر ٤٢٪ منهم أن مصدرهم لهذه الفكرة جاء عن طريق التلفزيون ، وقال ٣٦٪ أن مصدرهم لهذه الفكرة عن طريق الراديو ، في حين ذكر ٨٪ أن الصحف كانت مصدرهم للفكرة التي كونوها عن الحياة في الغرب^(١٥) . كذلك أجرى استطلاع للرأى شمل ألفين من سكان مدينة بوخارست عقب الاحداث التي انتهت باسقاط حكم الرئيس الروماني معلوماته عن تطور الاحداث في رومانيا منذ اندلاع المظاهرات حتى سقوط حكم تشاوشيسكو وهي فترة استغرقت أسبوعين كاملين .

وقد كشفت نتائج الاستطلاع ان ٧٤٪ من الشعب الروماني كان يعتمد في معلوماته عن تطور احداث الثورة على الاذاعات الغربية ، وان ١٠٪ كانوا يعتمدون على وسائل الاعلام المحلية ، وان ٦٪ كانوا

يعتمدون على اذاعة بلغراد ، وان ٦٪ كانوا يعتمدون على اذاعات الدول الاشتراكية المجاورة ، وان ٤٪ كانوا يعتمدون على اذاعة موسكو .

اما بالنسبة للاذاعات الغربية فقد كانت نسبة الاستماع على النحو التالي : ٢٦٪ يستمعون الى اذاعة لندن و ٢٢٪ لاذاعة صوت امريكا و ١٤٪ لراديو أوروبا الحرة و ١٢٪ لراديو الحرة^(١٦) .

ومن ناحية أخرى ، أجرى استطلاع للرأى على عينة من سكان مدينة موسكو للتعرف على مدى مصداقية وسائل الاعلام السوفيتية ووسائل الاعلام الغربية عند الجمهور السوفيتى وقد كشفت نتائجه أن نسبة مصداقية وسائل الاعلام الغربية عند الجمهور السوفيتى بلغت ٦٨٪ فى حين لم تزد نسبة مصداقية وسائل الاعلام السوفيتية عن ٣٢٪ .

وقد تبين أن ارتفاع نسبة مصداقية وسائل الاعلام الغربية سببه اعتقاد المشاركين فى البحث أن وسائل الاعلام الغربية تتمتع بحريات أكبر من وسائل الاعلام السوفيتية . وقد كشف الاستطلاع ان وسائل الاعلام لا تتمتع بدرجة مصداقية واحدة عن الجمهور السوفيتى ، ذلك أنه بالنسبة لوسائل الاعلام السوفيتية فقد تبين أن نسبة مصداقية الصحافة تصل الى ٦٤٪ فى حين لا تزيد نسبة مصداقية التلفزيون عن ١٨٪ والراديو ١٢٪ والنشرات الحزبية ٤٪ وقد تبين ان ارتفاع نسبة مصداقية الصحافة السوفيتية عن غيرها من وسائل الاعلام المحلية ، هو اعتقاد المشاركين فى الاستفتاء بأن الصحافة السوفيتية تتمتع بحريات أكبر من غيرها ، ثم انه يسمح لها بنشر المقالات الانتقادية التى يكتبها اشخاص من غير اعضاء الحزب الشيوعى ، كما انها تتوسع فى نشر الانتقادات فى أبواب بريد القراء ، كذلك فقد تبين أن الصحف التى

تصدرها النقابات والاتحادات والجمعيات الجماهيرية أكثر مصداقية عند الجمهور السوفيتي من الصحف التي تصدرها الدولة والحزب ، لاعتقاد الجمهور بأن النوع الأول من الصحف أكثر حرية من النوع الثاني . أما بالنسبة لوسائل الاعلام الغربية فقد تبين أن ٢٤٪ من المشاركين في الاستفتاء لم يتعرضوا لوسائل الاعلام الغربية ، اما الباقون فقد ذكر ٧٦٪ أنهم يستمعون الى الاذاعات الغربية فقط . وذكر ٢٠٪ انهم يستمعون الى الاذاعات الغربية ويقرأون بعض الصحف الغربية ، وقد تبين أن النسبة الأخيرة من الفئات الأكثر تعليماً بين الجمهور السوفيتي ، وهذه الفئة ترى أن درجة مصداقية الصحافة الغربية تزيد عن مصداقية الاذاعات الغربية لاعتقادها بأن الصحف الغربية أكثر حرية واستقلالاً من الاذاعات الغربية ، بسبب خضوع الأخير لنوع من الأشراف الحكومي^(١٧) .

وأهم ما نستنتجه من هذا الاستطلاع أن درجة المصداقية العالية لوسائل الاعلام الغربية بين الجمهور السوفيتي تشير الى قدر من التأثير تمارسه تلك الوسائل على اتجاهات التفكير عند المواطن السوفيتي .

أبعاد التغيير في النظام الاعلامى الشرقى

والسؤال الآن : هل تغير النظام الاعلامى الشرقى فى ظل إعادة البناء والعلنية ؟

من المهم التذكير مرة أخرى بأن النظام الاعلامى فى مجتمع ما ، إنما هو انعكاس للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى هذا المجتمع ، وقد قام النظام الاعلامى الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا ، على ضوء المفهوم الماركسى اللينينى للاعلام ، وهو مفهوم يرى ان الاعلام الاشتراكى ظاهرة ملتزمة وتخدم باستمرار أهداف الطبقة العاملة ، وأن رجال الاعلام مطالبون بالعمل باعتبارهم جزءا من هذه الطبقة^(١٨) ، لذلك فقد تميز الاعلام الاشتراكى بعدة خصائص من أهمها : الواقعية والالتزام والجماعية^(١٩) .

وقد تضمن المفهوم الاشتراكى للاعلام رفض الملكية الفردية لوسائل الاعلام ، كما أن من ابرز وظائفه : الدفاع عن النظام الاشتراكى والتوعية بالايديولوجية الاشتراكية^(٢٠) ، وفى التطبيق العملى فقد تطلب اداء وسائل الاعلام لهذه الوظائف فرض الرقابة السابقة أو اللاحقة على النشر أو الاذاعة ، وتحريم نقد النظام الاجتماعى وقيادته ، فضلا عن قصر العمل فى وسائل الاعلام على أعضاء الحزب الشيوعى .

ونما لاشك فيه ان صورة النظام الاعلامى فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا تختلف كثيرا اليوم عما كانت عليه قبل البروسترويكيا والجلاسنوست والاحداث الاخيرة فى دول شرق أوروبا ، ويمكن ان نرصد الظواهر التالية :

- منح وسائل الاعلام حريات واسعة في نقد النظام السياسى وقياداته ، مع الاعتراف بأن هذه الحريات تكاد تقتصر على الصحافة دون غيرها من وسائل الاعلام الجماهيرية كالراديو والتلفزيون .
- فتح ابواب الاشتغال فى وسائل الاعلام لكافة المواطنين ، دونما اشتراط العضوية فى الحزب الشيوعى .
- التوسع فى اتاحة فرصة التعبير امام كافة القوى السياسية ، والاهتمام برسائل القراء فى الصحف .
- اختفاء الرقابة على وسائل الاعلام ، سواء تلك التى تكون قبل النشر أو الاذاعة أو بعدها .
- سحب حق عقاب الصحف سواء بالتعطيل أو الالغاء أو الغرامة ، أو حق معاقبة الصحفيين من السلطات الادارية ، وقصرها على الجهات القضائية .

ونستطيع ان نقول ان النظام الاعلامى القائم الآن فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا قد استعار الكثير من مقومات وخصائص النظام الاعلامى الليبرالى ، ولكن يبقى ان نسجل تحفظاً على قدر كبير من الأهمية ، وهو ان ملكية وسائل الاعلام فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا مازالت ملكية جماعية ، كما ان الحريات الممنوحة لوسائل الاعلام لم تترجم حتى الآن فى قوانين للاعلام والمطبوعات تحدد واجبات الاعلاميين وحقوقهم ، وتحمى هذه الحريات من الاطاحة بها .

والتصوير الحقيقى لواقع الاعلام فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا ، انها تعيش مرحلة انتقال من النظام الاعلامى الاشتراكى الى النظام الاعلامى الليبرالى ، وان الصورة النهائية للنظام الاعلامى سوف يحسمها ما تستسفر عنه التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى تلك المجتمعات .

الهوامش

- (١) جورباتشوف . م : بيروسترويكيا ، عملية اعادة البناء والتفكير السياسى الجديد ، لنا وللعالم أجمع .
ترجمة وليد مصطفى وآخرين . عمان : دار الكرنك للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية . ١٩٨٩ . ص
٨٠
- The Times . April 22 , 1989 . (٢)
- (٣) جورباتشوف . م : بيروسترويكيا . ص ٧٧
- (٤) المصدر السابق . ص ٨١ .
- (٥) المصدر السابق . ص ٧٦ .
- (٦) خلف . عباس : حركة التجديد فى الأدب السوفيتى (الطلبة الأدبية) العدد ٢٠١ ، ١٩٩٠ م .
- (٧) بركات . سهر : الاذاعة الدولية . الكويت . ١٩٧٨ . ص ٢١ - ٢٤ .
- (٨) مانكيكار . د . ر : التدفق الحر من جانب واحد . ترجمة فائق فهم (اليونسكو) ص ٦٩ .
- The times : November 3 , 1985 . (٩)
- Kivikur . Ullmaija and Varis. Tapio . Tapio : Approaches to International Com- (١٠)
munication . (Publications of the Finnish National Communication for Unesco) . No.
35. Helsinki. 1986 . P.P. 204 — 209.
- Burto . Paulu: Radio and Television Broadcasting on the European Continent . (١١)
(University of Minensota Press) U . S . 1967 . P.P. 38 — 40 .
- Thomson . Foundation : International Communication . (Longman) London . 1988 . (١٢)
P.P. 236 — 23 .
- Unesco : World Communication . The Unesco Press . Paris . 1989 . P.P. 132 — 137 . (١٣)
- (١٤) جورباتشوف . م . بيروسترويكيا . ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .
- Franz . Karen Annette : The Coverage of the Berlin Wall on Local Tele vision . (Union (١٥)
for Democratic Communication Conference) (UDC) . California University . San
Diego . U.S.A . October , 11/14/1990 .
- Cha — Jae Young : Changeing Communication In a Socialist Country . (UDC) . (١٦)
October , 11/14/1990 .
- Bradford. Keith : An Empirical Analysis of Change in the Soviet Press. (Media and (١٧)
Crisis Conference) Laval University , Quebec, Canada. October, 1990 .
- (١٨) لينين : حول الصحافة . بغداد : منشورات الطريق الجديد) . الجزء الاول . ١٩٧٧ .
- Markham. W. James: Voice of the Red Gianst Communication in Russia and China. (١٩)
(The Iowa State University Press) . U. S. 1967. P.P. 23- 27.
- (٢٠) فاير . فرانز : الصحافة الاشتراكية . (معهد الاعداد الاعلامى) . دمشق . ترجمة نوال حنبلى
واخرون . ١٩٧١ . ص ١١٢ - ١١٥ .